نظرة على الدراسات الاثرية في الجزائر كما كانت وكما نريد لها ان تكون . (*)

(*) نص محاضرة القيت بندوة رؤساء اقسام الاثار بالمعات العربي التي انعقدت باصنعاء في شهر مايو 1986 :

الدكتور محمد البشير شنيتي
مدير معهد الآثار ـ جامعـة الجزائر

1 ـ أهمية الثروة الاثرية بالجزائر

● ليس بالجزائر اطلال عواصم تاريخية (أثرية) كبرى كما هو الحال في اليمن والعراق ومصر لعـدم توفـر الشروط الطبيعية والعوامل التاريخية لتواصل المجتمعات الحضرية عبر آلاف السنين بمواقع معينة . لكن ترابها يحتضن معالم اثرية متنوعة لا تزال ماثلة امام الزائر تحثه على الالتفات الى ماض عريق وترشده الى قراءة صور رائعة من أخبار قوم عاشوا هنا منذ أبكر عصور ما قبل التاريخ ، فخلفوا تراثا اثريا من ابدع وأثمن ما تمتلكه منطقة حوض المتوسط . وهذا ما حدا بالزوار من هواة الآثار الى وصف الجزائر بأنها متحف في الهواء الطلق لكون الاثار والمعالم التاريخية العائدة الى مختلف الاحقاب منتشرة في مختلف ارجائها .

وذلك ان الزائر يكتشف انه في بلاد تحتضن بقايا من تاريخ الانسانية منذ اقدم عهودها الى الآن ، بل انها تنفرد عن بقية بلدان العالم بامتلاكها اكمل واجمل منجزات كل من حضارة العصر الحجـري الحديث (نيوليتي) ممثلة في الفن الصخري الذي بلغ به انسان ما قبل التاريخ اوج مراحل الابداع في صحراء الجزائر، وحضارة روما المتميزة بتطور العمران المدني والريفي الذي تتجسد أوفى صوره في خرائب تيمقاد وجميلة وغيرهما ، دون ان ننسى النماذج النادرة للعمارة العربية الاسلامية بقصبة الجزائر ومدن وادي ميزاب و ما إلى ذلك .

ومما يميز الآثار في الجزائر ان كثيرا من معالمها يقع خارج مناطق العمران الحديث مما جنبها عوامل الافناء والامحاء الناجمة عن زحف البناءات الحديثة واعادة استعمال خرائب الاثار كمادة بناء جديدة .

2 ـ طبيعة اعمال المدرسة الفرنسية

● لقد جلبت مناظر اطلال المدن البادية من بعيد انتباه الرحالة الاوروبيين منذ القرن الثامن عشر فزاروها وسجلوا مقتطفات هامة عنها بمذكراتهم، كما اثارت اهتمام هواة الاثار من الفرنسيين منذ الوهلة الاولى لاحتلالهم الجزائر فانكبوا على تدوين اخبارها في مرحلة اولى (اثناء تغلغل الاحتلال نحو الداخل في النصف الاول من القرن 19) ثم اخصوها في مرحلة ثانية ببعثات استكشافية اطلقوا عليها الاستكشافات العلمية (scientifiques Explorations) استهدفوا بها احصاء ودراسة البقايا الاثرية كما هي على الطبيعة بالمعالم والاطلال، واعقبت ذلك حملات لجمع التحف واللقى الاثرية الثمينة صحبتها اعمال تنقيب انتقائي بقصد استجلاء هوية الاثار وتصنيفها. ثم شرعت الجمعيات التاريخية الاثرية الفرنسية في اعمال التنقيب بخرائب المدن الكبرى العائدة الى العهد الروماني مثل قيصرية (شرشال) وتيبازة الواقعتين غربي مدينة الجزائر وتميقاد وجميلة (كويكول) وهي مراكز حضرية كانت اطلالها مكشوفة تنبيء الناظرين عن امجاد غابرة.

واكتضت رفوف وواجهات المتاحف التي شيدت بأهم المدن الجزائرية بالتحف والتماثيل ولوحات الفسيفساء الرائعة. وتركزت جهود رجال الاثار على جمع العتائق التي كان الطلب عليها يتزايد بتزايد اهتمام المتاحف الفرنسية بالجزائر وفرنسا. ومن المعثورات التي حظيت بعناية اكثر المسكوكات القديمة (القطع الثمينة خاصة) والمنحوتات الجميلة والخزفيات المزخرفة وقطع الاسلحة والنقوش واللوحات الفنية وما الى ذلك. فكان هواة الاثار لا يأبهون بالقطع الاثرية او كسر الفخار ولا باللقي الاثرية الاخرى. فضلا عن ان التنقيب كان فوضويا لايخضع لمنهجية علمية.

وهكذا فقد اتسمت الاعمال الاثرية والتنقيبات التي اجراها الفرنسيون في الجزائر خلال القرن الماضي، والنصف الاول من القرن الحالي بروح النهب والتخريب للمواقع الاثرية والمكتشاف، حيث انه قلما كان يوضع للتحفة بطاقة فنية او يسجل تقرير واح لحفرية يمكن الرجوع اليه عند الحاجة.

لقد كان الاهتمام منصبا على الاشياء الثمينة والوصول الى ارضيات المباني ولوحات الفسيفساء ولا يؤبه بغير ذلك. ومن ثم كانت المستويات الاخرى تتعرض للتلف ولا تسجل معلومات بسجلات الحفريات ان وجدت. ومن ثم حرمنا اولئك المنقبون من الاستفادة بنتائج اعمالهم ماعدا الاشياء التي توقفوا عندها وأزالو عنها الانقاض، وهي عادة تنتمي الى مستوى المنشآت العائدة الى العهد الروماني.

إنك لا تعثر على اي شاهد على طبقة اسلامية في اي موقع من المواقع التي تم التنقيب فيها. بهذه الروح. ان الذي يزور المدن الرومانية التي تم الكشف عنها عن طريق المنقبين الفرنسيين او المتاحف التي شيدوه بالجزائر، ليعتقد وكأن القدامى كان همهم الوحيد اقامة المعابد والكنائس والساحات العامة والملاعب والتماثيل ولوحات الفسيفسساء ولا شيء غير ذلك.

وهنا يتجلى وجه الفريضة الايديولوجية في اعمال الاثريين الفرنسيين لقد كانت توجههم فكرة غائية مرتبطة بواقع سياسي كانوا يخططون لتكريسه وايجاد المبررات التاريخية له، وهو وجـود فرنسا في الجزائر، واعتبار هذا الوجود حلقة تاريخية ينبغي ان تتصل بحلقة قديمة تمثلت في وجود الرومان بهذه الديار.

ثم إن المتجول في أرجاء هذه المعالم الاثرية لا يلاحظ اثرا يشير الى وجود عنصر السكان الاهالي الذين كانوا يقيمون بالاحياء الوضيعة المحيطة بالمدينة (المستعمرة الرومانية).

ان معول الاثري لم يغرس في أماكن تلك الاحياء والاكواخ لانه لا يتوقع أن يعثر فيها على تمثال لفينوس او لوحة فسيفساء جميلة.

وسـاد الاعتقـاد ان جميع المـدن القديمة السابقة للاسلام رومانية وكذلك الاثار التي لاتحمـل ما يدل على انها اسلامية فهي اثار رومانية، وأصبح لفظ (روماني) مرادفا للفظ (قديم) مع ما في ذلك من تجاوز ومغالطة. وكأن الجزائر لم تعرف حضارة مدنية زاهية أثناء العهدين الفينيقي والنوميدي السابقين للاحتلال الروماني، وهي حضارة تجسدها اطلال اثرية كبرى ووثائق كتابية (نقوش لبونية/نوميدية) كثيرة ولقى اثرية متنوعة.

وأهملت المعالم الاثرية الاسلامية في باديء الامر ثم التفت اليها بعض المستشرقين من الفرنسيين الذين قاموا ببعض التقنيات في بعضها (قلعة بني حماد مثلا) لكن مدنا هامة اخرى ظلت دفينة التراب كتيهرت عاصمة أول دولة خارجية في المغرب الاوسط وسدراتة عاصمـة الاباضيين الثانية وآشير عاصمة الزيريين خلفاء الفاطميين على المغرب الاوسط وغيرها، ناهيك عن اعمال التخريب والتشويه التي اصابت المدن الاسلامية الحية مثل قصبة الجزائر التي اصابها ضرر بالغ.

3 ـ نظرتنا لوظيفة الاثار اليوم:

● وهكذا ورثنا عن الفرنسيين في حقل الاثار مجموعة من المتاحف هي عبارة عن اروقة تضم نماذج من المنحوتات الرومانية ولوحات الفسيفساء وقطعا اثرية معظمها منسوب الى الرومان كما خلفوا لنا معالم مدن رومانية ازالوا عن اطلالها الانقاض وزودوها بمرشد سياحي يلخص اقسـامها والعناصر المعمارية فيها مبرزا امجادها. ولا شيء عن المدن الاسلاميـة اطلاقا، فهناك دليل تيمقاد الرومانية وجميلة (كويكول) الرومانية وتيبازا الرومانية وقيصرية (شرشال) الرومانية ولا دليل لقلعة بني حماد او تيهرت او آشير.

ولم يكن المواطن الجزائري معنيا بالمتحف او الموقع الاثري لانه كان على يقين بأن الرسالة التي يحملها المتحف او المعلم الاثري الروماني مزورة وانها موجهة الى المستوطنين الفرنسيين والسـواح الاجانب. ولذلك فان هذه المتاحف والمعالم الاثرية فقدت حيويتها بعد رحيل الفـرنسيين من الجـزائـر واصبحت نظرة النـاس الى هذا الميدان يشـوبها كثير من الفتور والاشمئزاز لارتباطه بالماضي الاستعماري في الجزائر.

ولم تأخذ هذه النظرة في التغير الا بعد سنين من الاستقلال لما بدأ الناس ينتبهون الى ان

كثيرا من المعلومات التاريخية تكمن في المخلفات الاثرية وان لا سبيل الى الوقوف على الحقائق التاريخية لازمنة تقل فيها الكتابة او تنعدم الابالبحث عن الاثار ودراسة المكتشفات.

وقد برزت الحاجة الى العناية بعناصر الشخصية الوطنية النابعة من مقومات الحضارة العربية الاسلامية، والعمل الجاد لاسترجاع مكانة الجزائر الحضارية بالاعتماد على ما تزخر به البلاد من تراث ثقافي عريق ومعالم تاريخية بارزة، وهكذا تأكد الاقتناع بالدور الهام الذي يمكن ان يلعبه علم الاثار الحديث في الكشف عن العناصر المادية للتراث الحضاري بمختلف انواعه والانكباب على دراسته واستخلاص المضامين التاريخية منه، فأخذ هذا الميدان يسترجع مكانته الجديدة ويتبوأ منزلة خاصة لدى المهتمين بحقل الكر والثقافة والتاريخ في الجزائر اليوم.

ففي وزارة الثقافة استحدثت مديرية جديدة دعيت بمديرية التراث عهد اليها امر النهوض بالنشاطات الثقافية الرامية الى احياء التراث الاثري وصيانته ونشر المعرفة المبسطة به في اوساط المواطنين.

أما الجامعة فقد طورت نظرتها لعلم الاثار ووسعت حقل اهتمامها بالتكوين فيه بمختلف مراحله. حيث تضمنت الخريطة الجامعية الجديدة (1984) انشاء معهد للاثار، يمكن ان تصل قدرة استيعابه الى سبعمائة (700) طالب لتلبية الاحتياجات الوطنية في هذا الميدان وتماشيا مع المنظور السياسي المستند الى اختيار وطني لا محيد عنه. وهكذا تحول فرع الاثار الذي كان تابعا لقسم التاريخ منذ 1976 الى معهد مستقل، وعدلت برامجه الدراسية لتستجيب لشروط التكوين ونوعياته الجديدة وتتماشى ومستجدات العلم في هذا السبيل.

يقوم معهد الاثار بالتكوين في مختلف الميادين الاثرية، بالتركيز على مجالات الدراسة والتنقيب والمعالجة، طبقا للبرامج الموضوع في هذا الصدد، وهو يتضمن التعريف بالاثار وتركيبها ومكوناتها والمناهج العلمية في دراستها (النظرية، التطبيقية والميدانية) وذلك تماشيا مع الاحتياجات الوطنية في ميدان التراث الحضاري الوطني من حيث البحث والصيانة والدراسة والنشر.

شـــروط الالتحـاق :

ان معهد الاثار وحيد في التراب الوطني، وعليه فهو يستقبل الطلبة من جيمع انحاء الوطن، من الحاصلين على شهادة :

— بكالوريا ادبي.
— بكالوريا علمي.
— شهادة معادلة.
— بالاضافة الى فحص.

مـــدة الـــدراســـة :

تدوم الدراسة في معهد الاثار اربع سنوات موزعة على مرحلتين :
— مرحلة الجذع المشترك : ومدتها سنتان، بالاضافة الى مواد مشتركة في السنة الثالثة.

ويشتمـل الجذع المشترك على مواد دراسية عامة تدخل في التكوين الاساسي لطالب الاثار، منها العلوم الاثرية ومنها العلوم المساعدة واللغات القديمة والاجنبية الحديثة.

— مرحلة التخصص : ومدتها سنتان وتشتمل على ثلاث تخصصات.
— اثار ما قبل التاريخ.
— اثار اسلامية
— اثار قديمة.

وتتوج الدراسة بمذكرة يقوم الطالب باعدادها في التخصص تناقش علانية.

لمحـــة عن التخصصـــات :

1) ـ اثار ما قبل التاريخ :

ان علم ما قبل التاريخ هو تخصص يبحث في التطور البيولوجي والحضاري للانسان قبل معرفته للكتابة وكذلك علاقته بالتغيرات التي عرفتها البيئة.

وتعتبر الجزائر من اهم بلدان العالم لمعرفة فترة ما قبل التاريخ بما تحتوي عليه من مواقع اثرية عديدة.

واهم هذه المواقع المعروفة عالميا موقع عين الحنش، الذي عثر به على أقدام صناعات حجرية في شمال افريقيا.
وموقع تغنيف المعتبرة من اقدم مواقع شمال افريقيا من حيث البقايا العظمية البشرية والموصوفة باسم (انسان الاطلس) وموقع بير العاتر (ولاية تبسة)، الذي تنسب اليه معظم حضارة العصر الحجري المتأخر (ايبيبا ليوليتيك) في شمال افريقيا.

والى جانب ذلك هناك النقوش الصخرية ذات الشهرة العالمية التي تزخر بها الصحراء الجزائرية واقليم الاطلس الصحراوي والتي تعبر عن ازهى حضارات ما قبل التاريخ في المغـرب والعـالم. وتشمل الدراسة في هذه الشعبة مختلف جوانب التطور البشري مرتبطا بالبيئة في شمال افريقيا والعالم مع التركيز على نماذج من الواقع الاثرية الموجودة بالجزائر وكذا محتويات متاحف ما قبل التاريخ.

2) ـ الاثـــار القديمـــة :

يشتمل تخصص الاثار القدية على دراسة اثرية للعصور القديمة الممتدة من فجر التاريخ الى القرن السابع الميلادي، مع التركيز على اثار شمال افريقيا وحوض المتوسط. ويتناول هذا التخصص اهم بقايا العناصر الحضارية العائدة الى العهود : البونية، النوميدية، والرومانية ثم البيزنطية، مع الاهتمام بأوجه مساهمة الانسان الجزائري في التراث الحضاري العائد الى تلك العهود.

3) ـ الاثـــار الاسلاميـــــــة :

يشتمل تخصص الاثار الاسلامية على دراسة معالم الحضارة العربية الاسلامية ومختلف عناصرها المتبقية والعائدة الى مختلف العهود الاسلامية مشرقا ومغربا، مع التركيز على النماذج الاثـرية المجسدة للقيم الروحية في الحضارة العربية الاسلامية من خلال مجالات ابداع الحضارة في الفن والعمارة وما الى ذلك.

التكـوين الميـداني :

تنقسم الاعمال الميدانية في معهد الاثار الى نوعين :

1) ـ الدراسات المتحفية والرحلات الدراسية : يتضمن المقرر الدراسي تكوينا ميدانيا من خلال دراسـة محتويات المتاحف والمعالم الاثرية الموجودة في مختلف مناطق الوطن، وذلك ينتظيم رحلات تتراوح مدتها من يوم الى 10 ايام في السداسي الواحد، وهي مقررة على جميع الطلبة بالجذع المشترك.

2) ـ التربصات : أما التربصات فهي مرتبطة بالتكوين الميداني المقرر على كل طالب في التخصص لاكسابه خبرة بالممارسة عن طريق المشاركة في اعمال التنقيب والصيانة والترميم بالمواقع الاثرية والمتاحف، وذلك لمدة شهر على الاقل اثناء السداسي الثامن (السنة الرابعة) خاصة، يقدم عنها الطالب تقريرا لاستاذه المشرف على التكوين الميداني.

وقد شرع المعهد منذ نشأته في القيام بحفائر في ثلاثة مواقع هامة :
— موقع لما قبل التاريخ بمغارات حمام الضلعة (ولاية المسيلة)، موقع تازا بولاية جيجل.
— موقع للاثار القديمة بمروانة (ولاية باتنة).
— موقع للاثار الاسلامية بالمنصورة (ولاية تلمسيان).
احتك طلاب الاثار بالطبيعة في هذه الحفائر ومارسوا اعمال التنقيب بها تحت اشراف اساتذتهم.

وللمعهد برنامج للتنقيب بالتعاون مع مديرية التراث بوزارة الثقافة والسياحة في مواقع جديدة منها :

— موقع بغاي شمالي الاوراس (آثار قديمة).
— موقع عين الحنش بالقرب من سطيف (آثار ما قبل التاريخ)
— موقع آشير (آثار اسلامية).

وبعد. هذه نبذة مختصرة عما كانت عليه الاثار في الجزائر اثناء عهد الاستعمار الفرنسي وكيف نود ان تكون، اعرضها على جمعكم الموقر ملتمسا العذر ان اقتضبت او قصرت.

والسلام

د. محمد البشير شنيتي
مدير معهد الاثار
جامعة الجزائر.